مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 07 (02) جوان 2023 ص ص 941-964

الكتابة الاستشراقية في السيرة النبوية
بين تكريم النبوّة وإجحاف العبقرية

The Orientalist Writing In The Prophet's Biography Between Honoring Prophecy And Prejudice To His Genius

عبد العزيز بن تيشة *
جامعة أحمد بن بلة – وهران (الجزائر).
البريد الالكتروني: abdelazizbenticha76@gmail.com

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/12/09	2023/02/14	2023/06/01

الملخص: يروم البحث إزالة اللبس الحاصل في الكتابة الاستشراقية من جهة كونها لا تهتم لوصفيّ النبوة والرسالة لمحمد الأكرم، ويعمل على بيان أنّ وصف المستشرقين له بالتميّز الإنساني والعبقرية والبطولة.. هو في الحقيقة تنقّصٌ من قدره ومكانته؛ يُراد به التهوين من شأن رسالته ونبوّته الخاتمة. كما يهدف البحث إلى استكشاف مظاهر التنقيص تلك، ويوصي بالأوصاف اللائقة بشخص النبي ﷺ.

الكلمات المفتاحية: *السيرة النبوية؛ الكتابة الاستشراقية؛ النبوة ؛ الرسالة؛ العبقرية.*

Abstract: The research aims to remove the ambiguity that occurs in the orientalist writing on the one hand because it does not care about the description of the prophethood and the message of Muhammad the status. It works to show that the orientalists' description of him as human excellence, genius and heroism is in fact a detraction from his value and status which intends to underestimate the importance of his message and his final prophecy . The research also aims to explore these manifestations of diminution and recommend appropriate descriptions of the person of the Prophet, may God bless him and grant him peace.

Keywords: *Biography of the Prophet, the orientalist writing, prophecy, message, genius.*

* **المؤلف المرسل**

مقدمة:

تعاقبت كتابات المستشرقين على زعماء الشرق العربي وأبطالهم، لكن لم تحض شخصية بالدراسة والبحث كشخصية محمد بن عبد الله ﷺ؛ لما لها من التأثير البالغ على البشرية جمعاء، فقد تعرّض الاستشراق إلى حياة النبي ﷺ وسيرته من مولده حتى وفاته. وإنّ ما يعنينا في هذا البحث هو رفع اللبس الحاصل بين الكتابة الاستشراقية النافية لوصف النبوة والرسالة عن محمد ﷺ، وبيان أن وصفه بالتميّز الإنساني والعبقرية والبطولة.. لا يغني شيئا إذا نُفيت عنه صفة النبوّة والرسالة. وتوضيح أن ذلك تنقّصٌ من قدره ومكانته الحقيقية، يُراد به التهوين من أمر رسالته ونبوّته الخاتمة التي فيهما نزل القرآن الكريم ومن خلالهما ورد دين الإسلام.

وقد تم معالجة هاته الفكرة من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما مفهوم السيرة النبوية والاستشراق؟ ما أهمية دراسة السيرة النبوية؟ ما طبيعة تلقّيها، وما هي مصادرها الأصيلة؟ ما الفرق -في الحديث عن السيرة النبوية- بين حقيقة وصف النبي ﷺ بالرسالة والنبوّة وبين وصفه بالأوصاف القيادية التي يتميّز بها عن سائر البشر؟ ما طبيعة الكتابة الاستشراقية في السيرة النبوية؟ وختاما ذيّلنا البحث بنتائجه وتوصياته.

1. مفهوم السيرة النبوية:

2.1. لغة واصطلاحا:

السيرة في اللغة السنة والطريقة والهيئة (الفيروز آبادي، 1938، ص54). فالسيرة الطريقة والهيئة وأحاديثُ الأوائل، والسيرةُ الحال التي يكون عليها الانسان وغيره.. لكنها صارت عَلَمًا بالغلَبة على الحديث عن أحوال رسول الله ﷺ وشؤونه ورعايته وكفالته وبعثته وهجرته وأيامه ومغازيه ونسائه وأبنائه ومواليه وما يتعلق بذلك من شؤون حياته إلى أن قبضه ربُّه جلّ وعلا. كلُّ ذلك يُسمّى سيرة؛ أي ما كان عليه النبي ﷺ من طريقة وهيئة وحالة في شؤون حياته كلّها.

أمّا السيرة في اصطلاح أهل العلم فكثرت تعاريفها ومفاهيمها تبعا لزاوية النظر المنظور منها، لكن يمكن أن نرصد اتجاهين اثنين في مؤلفات السيرة النبوية.

الأول: ينظر إلى السيرة بمعناها الخاص وهي السيرة المختصة. والثاني هو النظر إلى السيرة بمعناها العام، وهي السيرة الشاملة والكاملة لحياة النبي المصطفى ﷺ.

فالسيرة النبوية بالمعنى الخاص هي معرفة أيام النبي ﷺ ومغازيه وحياته في مكة والمدينة وما يتعلّق بهما. أما بمعناها العام الشامل الكامل فهي حياته كلّها ومن جميع النواحي والجوانب بما في ذلك ما وُجد في كتب السنة وغيرها. أي أنها عرضٌ كامل شامل لحياته وبشريته للبشرية جمعاء. وأحسن من يُمثّل هذا الاتجاه كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم رحمه الله، فلم يكتف بالمغازي، ولكنه ساق كثيرا من هدي النبي ﷺ وشؤون حياته. وهذا من صميم السيرة النبوية.

ويمكن أن نُجمل تعريفا جامعا للسيرة النبوية فنقول: إنها دراسة حياة النبي ﷺ وشخصيته وأخباره ومغازيه، نعرض فيها حياته للبشرية والعالم. في سلمه وحربه، في منامه وصحوه، ومع أعدائه وأوليائه.

2.2 مفهوم الاستشراق:

يُقصد بالاستشراق، أناس من اليهود والنصارى وغيرهم ممن تعلّموا لغة الشرق؛ وأخذوا ثقافتة عامة، وبحثوا في تعاليم الإسلام. فبعضُهم -وهم قلّة- تكلّم بالحق وكتب بالحق، وأغلبهم لا ينصف ولا يتكلّم بالحق، وإذا تكلّم بالحقّ دسّ السمّ فيه والباطل كي يردّ المسلمين عن دينهم وعن نبيّهم، هدفهم التشكيك في دين الإسلام ونبي الإسلام ﷺ وعقيدته وسيرته وتاريخه. "والمستشرقون طبقة من الناس كالأدباء والفقهاء والعلماء والمؤرخين والفلاسفة، فيهم البارع والعادي والخائب، وفيهم الأمين والخابط والخائن، وفيهم القادر والضعيف والعاجز" (فروخ، 1987، ص54).

لقد أنجز الاستشراق على أيدي هؤلاء الكتّاب الكثير من الأبحاث والدراسات، كعلوم الشريعة والعربية والتاريخ والحضارة.. فدرسوا المخطوطات العربية الإسلامية في أنحاء العالم، وكتبوا عن دين الإسلام في عقيدته، وقدّموا تصوّرات لمرحلة ما قبل الإسلام، ثمّ توجّهوا لدراسة السيرة النبوية في شخص النبي ﷺ وعبقريته وزعامته وبطولته.. لا في وصف نبوّته ورسالته والإيمان به.

إنّ هذه الرؤية تجاه النبي ﷺ تطوّرت عبر العصور "تطوّرًا في الشكل دون أن تكون تطورا في مضمون فهمها للإسلام، وهذه الرؤية في الأساس سلبية عدائية" (النعيم، 1997، ص27). لأنّ إنكار الرسالة والنبوّة تمهيد لإنكار كون القرآن الكريم من عند الله تعالى، فإذا أنكروه لم يبق إلا إنكار الإسلام فينكروه.

تختلف دوافع الاستشراق باختلاف الزمان والمكان والظروف المحيطة بها، فمنها الدوافع الدينية، والسياسية الاستعمارية، والدوافع العلمية.. وغيرها. (الثبيتي، 1424هـ، ص105-112). وهنا ينبغي التنبّه أنّ الاستشراق قرين الاستعمار، ومرآة للتبشير وتفكيك الكيان المسلم، وهو أيضا وسيلة صهيونية ماسونية بابية بهائية. وأنّ هذه الاتهامات الموجّهة للاستشراق تقوم على ثوابت وحقائق لا يرفضها غير المكابر والجاهل؛ مكابر من المستشرقين، وجاهل من الشرقيين العرب الذين عرفوا كيف مزّق الاستشراق الوجود العربي والإسلامي، وكيّف مهّد الذهن العربي لقبول حقيقة اليهود في فلسطين. (ينظر: الأعسم، 1987، ص20).

ويرى إدوارد سعيد الاستشراق في معان ثلاثة:

أولا: أنه مبحث جامعي أكاديمي، يعمل بالتدريس والكتابة وإجراء البحوث عن الشرق في مجالات عدة.

ثانيا: أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يُسمّى الشرق وبين ما يسمى الغرب.

ثالثا: أسلوب غربي للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلّط عليه (الظفيري، 2015، ص82-83).

فالاستشراق ظاهرة وحركة ثقافية تتمثل في دراسة الغربيين لعلوم الشرق عموما ودراسة الإسلام خاصة لغايات كثيرة منها تشويه الإسلام وصورته لدى المؤمنين به وغيرهم، وأغلب جهود المستشرقين منصبّة على مصادر الإسلام ونبي الإسلام وأعلام المسلمين. والاستشراق في حقيقة الأمر هو امتداد لسلسة الحروب الصليبية ضد دين الإسلام والمسلمين.

3. أهمية دراسة السيرة النبوية:

إنّ السيرة النبوية منهجٌ للحياة ومصدرٌ من مصادر التشريع وتراث لا يبلى للدارسين والباحثين، ولم تُعن أمة من الأمم قديما وحديثا بآثار نبيها وحياته وسيرته مثلما عنيت الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل بنبيها محمد ﷺ. عنايةٌ كان من آثارها ثروة هائلة من الكتب المؤلفة في مولده ونسبه وسيرته وأزواجه وحياته وشمائله وفضائله وخصوصياته ومعجزاته.. الخ. بل بلغت العناية أنْ بحث أصحابُ السير في نياقه وحميره ونعاله وأسمائها... إلى غير ذلك، فقد جمع المسلمون "كلّ ما يختص بالنبي ﷺ صحيحا كان أو سقيما.. وأسّسوا لرواية الأخبار والسير أُسسا وقواعد محكمة يرجعون إليها، وأصولا متقنة يتمسكون بها في تمييز الصحيح من الفاسد والغثّ من السمين". (سلامة، 2010، ص43). مما يدل على غاية الحبّ والعناية بآثاره ومخلفاته ﷺ.وهذا إنْ دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنّه رسولُ الله حقا ونبيُّه صدقا.

فقد كُتب في السيرة النبوية منذ الصدر الأول الاسلامي حتى أيامنا هذه ما يعزُّ على الحصر من المؤلفات والكتب المنثورة والمنظومة الصغيرة والكبيرة، فألّفوا في الأحاديث النبوية "ولم تخل كتبهم غالبا عن ذكر ما يتعلّق بحياة النبيﷺ ومغازيه، وخصائصه، ومناقبه، ومناقب صحابته". (أبو شهبة، 1992، ص27). وسيبقى الكاتبون يدورون حول

سيرة الرسول ﷺ ويكتبونها في كل عصر ومَصرٍ إلى أن تقوم الساعة، وهذا دليلٌ ساطع على عناية الله تعالى بنيه محمد ﷺ تحقيقا لقوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 04].

وكان السلف من الصحابة والتابعين يولون السيرة النبوية اهتماما بالغا، روى الخطيب البغدادي "عن إسماعيل بن محمد ابن سعد قال: «كان أبي يعلّمنا مغازي رسول الله ﷺ، ويعدّها علينا، وسراياه، ويقول: يا بَنيَّ هذه مآثر آبائكم، فلا تضيّعوا ذكرها».. وقال سمعت علي بن الحسين يقول: «كنا نُعَلَّمُ مغازي النبي ﷺ وسراياه، كما نُعلَّم السورة من القرآن»". (البغدادي، 1983، ص195)، ويقول بن عباس ﷺ: "كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فأسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ وما نزل من القرآن في ذلك". (الزهري، 2001، ص320).

والجدير بالذكر هنا أنّ الكتابة في السيرة النبوية لا تقتصر على المسلمين وحدهم، بل شارك وساهم في ذلك غير المسلمين قديما وحديثا وفي كل بقاع الأرض. قال سليمان الندوي: "ودعْ عنك المسلمين وما صنّفوا في سيرة نبيهم ﷺ، فإنّهم يُحبُّونه حبًّا عظيما، ويقدمون ذلك بين يدي الله فرطا وذخرا لهم يوم القيامة، وتعال ننظر إلى من ألّف في سيرته ممّن لا يؤمنون بنبوّته، ولا يُوقنون برسالته، فإننا نجد.. قبل نحو أربعين سنة إحصاءً لما صُنّف في السيرة النبوية بمختلف اللغات الأوروبية، فبلغ نحو ثلاثمئة كتاب وألفَ كتاب". (الندوي، 2002، ص87-88)، وعلى هذا الوصف، لو تمت إضافة ما صدر بعد ذلك لزاد العدد كثيرا كثيرا.

1.3 تلقي السيرة النبوية:

القرآن الكريم هو المصدر الأول في تلقّي السيرة النبوية وفهمها، وبالنظر في الآيات التي تتحدّث عن أحداث السيرة، نجد أنّ القرآن يشتمل على الكثير من وقائع السيرة، ومن ثَمةَ وُجد من صنّف عن سيرة النبي ﷺ من منطلق قرآني مثل كتاب: (سيرة

الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم) لمحمد دروزة. كتب الكتاب انطلاقا من فهمه لكتاب الله العزيز.

وحين نعلم أنّ القرآن الكريم تحدّث في بعض أحداث السيرة بما لن نجده في مصدر آخر ببعض تفصيل وبيان، بل أزال التباسا عند بعض الأفهام القاصرة مثل زواج النبي ﷺ بزينب رضي الله عنها. كذلك كان في القرآن إشارات دقيقة لبعض الأحداث والصور في السيرة النبوية، فنجد أنّ قارئ القرآن يعيش مع آيات كتاب الله كأنه يعيش الحدث في واقعه ووقته.

والقرآن الكريم أصّل لمسألة مهمة وهي أنّ سيرة النبي ﷺ ورسالته عامة وليست إقليمية أو محلية كما أراد أن يصوّرها البعض ممن كتب في سيرة النبي ﷺ فقالوا محلية ومكيّة. والحق أن رسالة الإسلام عالمية. وفي هذا الشأن نذكر أنّ المصدر الأساس لتلقي السيرة النبوية هو القرآن الكريم.

يأتي تفسير القرآن الكريم في ما جاء فيه من سيرة النبي ﷺ مصدرا مُهمًّا من مصادر السيرة النبوية. فأول مصدر من مصادرها في منهجية التعامل مع السيرة النبوية هو القرآن الكريم، هذا جعل العديد من علماء الحديث وحُفّاظ السنة يضعون كتبا خاصة بالمغازي والسير كما فعل البخاري في كتاب المغازي، وكما فعل مسلم في كتاب السير.. فهناك مظانّ كثيرة للسيرة موجودة في كتب السنة النبوية. ولمّا كانت السيرة النبوية مشتملة على موضوعات متعددة أُفردت بالتأليف مثلما أُفردت المغازي، ودلائل النبوّة.

كذلك الذين كتبوا في السيرة النبوية على نسق كتب التاريخ، أما كتب السيرة المعروفة فقد جاءت في عصر التابعين، وأول من ألّف فيها هو الأمير الصالح والعالم الفقيه أبان بن عثمان بن عفان، كان فقيها عالما، وكانت مجالسه مجالس علم، وكان مما يُقال فيها ويُذكر أخبار النبي ﷺ وسيرته العطرة؛ فحداه ذلك إلى أن يُؤلّف كتابا -كان هو أول كتاب في الاسلام- مغازي أبان بن عثمان. وكانت له آراء في التفسير وروايات في

العقائد والفقه، ومرويات في الحديث والمغازي والسير. (ينظر: محمد الطاهر، 2001، ص119-133).

وكذلك كتب معاصره عروة بن الزبير كتابا (مغازي عروة) ثم تلاه في القرن الثاني الهجري كتابات عمدةٌ في السيرة كالمغازي والسير لمحمد بن إسحاق، الذي ألّفه بطلب من الخليفة أبي جفر المنصور، ثم محمد بن شهاب الزهري، وأبو بكر بن حزم الأنصاري، ومحمد بن عمر الواقدي.. "ثم بعد هؤلاء علماء كثيرون ألّفوا في السير، ما بين مُطنب، وما بين موجز، وما بين متوسّط، ومنهم من اعتنى بذكر الأسانيد.. ومنهم من ألّف فيها نظما". (أبو شهبة، 1992، ص34-35).ومن أشهر هذه الكتب: جوامع السيرة لابن حزم الظاهري، محتصر السيرة لابن حجر العسقلاني.. ومن الكُتّاب من جمع بين التاريخ والسيرة ومنها: تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري. ومروج الذهب لأبي الحسن المسعودي، وتاريخ الإسلام للذهبي. والبداية والنهاية للحافظ بن كثير. (أبو شهبة، 1992، ص37).

إنّ الكتابة في السيرة النبوية خاصة والتاريخ عامة تُحتّم عليه العودة إلى كتب الأولين ومصادرهم الأصيلة، لأنّ الخوض في السيرة ليس من قبيل اختراع الأحداث ونسج الوقائع في الأحلام، بل هو البحث عن حقائق مرّت في هذا العالم في مرحلة من مراحل الزمن، وعن أحداث كانت ماثلة في مكان ما، وعن حياة عاشها فردٌ أو مجتمع بكلّ ما في هذه الحياة من أبعاد. قال الطبري في مقدمة تاريخه: إنّ "العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائنٌ من أنباء الحادثين، غيرُ واصل إلى من لم يُشاهدهم ولم يُدرك زمانهم؛ إلا بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس..". (الطبري، ص13)؛ أي أنّ الكتابة في السيرة إنما هي تأليف وترتيب لما ورد من الوقائع والأحداث التي نقلها لنا أصحابُ رسول الله ﷺ وحملها من بَعدهم حتى

دُوّنت؛ لذلك فالسيرة ليست محض خيال أو وهم، وكذلك التاريخ، هو وقائع ممحصة يُثبت فيها الأصيل ويُنفى عنها الدخيل.

2.3 مصادر السيرة النبوية:

إنّ كُتب السيرة التي نقل منها اللاحقون المتأخرون تنحصر في عدد معيّن محدود، لذا كان لزاما أن يوجد -ضمن مقتضيات المنهج العلمي- قسمان لمصادر السيرة النبوية، مصادر أصلية، ومصادر فرعية:

أ- المصادر الأصلية فهي الكتب الأولى وما قاربها، ومصادرها شفهية معتمدة، تُنقل بالأسانيد، وتختلف الروايات كثرة وقلة بين المصنفات والمدوّنات. وتمتدّ هذه المرحلة حتى القرن الخامس الهجري تقريبا.

ب- المصادر الفرعية فهي التي أُخذت من المصادر الأصلية وعوّلت عليها، واقتصر عمل مؤلفيها على الجمع والتنسيق والتعليق والشرح.. وإن كان الغالب على هذه المصادر واحد من شيئين: إمّا المبالغات الزائدة وتصوير السيرة بالصورة الأسطورية الخرافية، وإمّا التحليل الجاف، مع إظهار بعض المواقف في السيرة النبوية على غير حقيقتها. (ينظر: حمادة، 2002، ص32).

ونعني بالمبالغات الزائدة والتصوير الأسطوري ما يصدر من مُحبٍّ لرسول الله ﷺ مؤمنٍ به، حتى بدت السيرة النبوية من خلال هذه المؤلفات بعيدة عن الواقع جدا، وتجلّى هذا في الأعصر المتأخرة. ورحم الله الإمام الذهبي الذي قال في هؤلاء: الذين صبغوا السيرة النبوية من أصحاب المصادر الفرعية بالصبغة الأسطورية مع جنوحهم إلى مبالغات لا تُتَصوّر. (ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها). ورحم الله الإمام شمس الدين الذهبي الذي قال في هؤلاء: "ونبيُّنا صلوات الله وسلامه عليه غنيٌّ بِمدحة التنزيل عن الأحاديث، وبما تواتر من الأخبار عن الآحاد، وبالآحاد النظيفة الأسانيد عن

الواهيات، فلماذا يا قوم نتشبّع بالموضوعات، فيتطرّق إلينا مقال ذوي الغلّ والحسد، ولكن من لا يعلم معذور". (الذهبي، 1985، ص216).

ويغلب على هذه المصادر الفرعية أيضا، التحليل الجاف، وتصوير بعض الأحداث والوقائع في السيرة بغير وجهها الحقيقي. سواء كان الكاتب مسلما أو غير مُسلما ولكنه أدخل السيرة لمصلحة نزعته الفكرية أو المذهبية.. كوصف النبي ﷺ بالاشتراكية أو الرأسمالية أو القومية العربية.. من منظار مجرّدٍ عن أمر نبوّته ورسالته. إلى غير ذلك ممن وُجدوا في القرن العشرين وما زالوا موجودين، وكما فعل المستشرقون من قبلهم، حين طعنوا في أخبار ثابتة صحيحة عن شخص النبي ﷺ وزوجاته وحياته

3- المصادر الأصيلة للسيرة النبوية:

يُعدّ تعيين المصادر الأصيلة لسيرة النبي ﷺ من أهمّ الأعمال الواجب إنجازها والعناية بها، لأنها تخدم السيرة وتوثّقها وتبرز الإسلام صحيحا، وتُشهره مليحا. إنّ معرفة المصادر يسهم في إغناء الثروة الصحيحة والثابتة للسيرة النبوية، ومن خلالها يتيسّر الردّ عن خصوم نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، ويسهل دحض المستشرقين وأذنابهم الذين يُزيّفون الحقائق ويلبسون الحق بالباطل. ومعين السيرة الأول التي تأخذ منه وتنهل القرآن الكريم.

أ- القرآن الكريم: وهو المصدر الأول والأساس لسيرة النبي ﷺ وقد ورد في القرآن الكريم من الحقائق والأحداث المتعلقة بالسيرة النبوية ما يُعطي صورة عامة عن سيرة الرسول ﷺ، "لقد عرض القرآن الكريم لكثير من أحداث السيرة النبوية عن طريق سرد مشاهدها، أو عن طريق تعليقه عليها، وبيان موقفه منها، ولفت أنظار المسلمين زمن البعثة وبعدها إلى ما تتضمنه وقائعها: من عبر، ودروس؛ ليستفيدوا منها..". (هرماس، 2007، ص28). فورد فيه ذكرٌ لبعض أحوال العرب قبل البعثة من الناحية الدينية والاجتماعية والاقتصادية وطرَفٌ من حياة النبي ﷺ، كما ذكر ما كان عليه من خُلق كريم.

وورد فيه ذكر مواقف لأعداء الدين الإسلامي، وورد فيه كثير من أساليبهم في الصدّ عن الإسلام، وجاء فيه طرفٌ من ذكر الهجرة النبوية وذكر المعارك الحربية الكبرى مع المشركين كغزوة بدر وأحد والأحزاب وكصلح الحديبية.. وغير ذلك مما يعطي صورة عامة عن سيرة النبي الكريم ﷺ. "سواء ما تعلق بالعقيدة، أم بالأحكام الفقهية، أم بالأخلاق والتربية وبقواعد الحياة الانسانية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك". (زريق، 2017، ص07). وتوّج ختاما القرآن الكريم ذلك كلّه في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4]. "كما حدّثنا القرآن عن الحضارات القديمة التي كانت في جزيرة العرب وما جاورها، مما يلقي الضوء على أحوال المجتمعات الانسانية، قبل وحين ظهور الإسلام". (رزق الله أحمد، 1992، ص16).

وقد تميّز القرآن الكريم كمصدر للسيرة النبوية بخصائص منها: تفرُّده بأعلى درجات الصدق؛ حيث نُقل بالتواتر القطعي اليقيني، وتكفّل الله بحفظه، وتميّز أيضا كمصدر للسيرة بالربط بين مقدمات الأحداث ونتائجها، والتركيز على بيان الأسباب وتعليل العواقب كبيان سبب ما أصاب المسلمين في غزوة أحد. وتميّز القرآن الكريم بالكشف عن خفايا النفوس والإخبار عمّا تكنّه الضمائر، فهو مُنزّلٌ من لدن الذي يعلم السر وأخفى، فجاء في معرض ذكر زواج النبي ﷺ من أم المؤمنين زينب رضي الله عنها في سورة الأحزاب.

ومما تميّز القرآن الكريم كمصدر للسيرة النبوية وصف المشاعر النفسية التي تبدو من مختلف الأطراف في أجواء بعض الأحداث، كوصفه الحالة النفسية لأهل المدينة من مسلمين ومنافقين في غزوة الأحزاب. ويتميّز القرآن كذلك بالإخبار عن أمور تخفى على البشر، كإخباره بمشاركة الملائكة في القتال في بعض المعارك، وكإخباره بوجود مؤمنين في مكة مع الكافرين يُخفون إيمانهم في سورة الفتح.. "وينبغي التفطن إلى أنّ الإفادة التامة من القرآن الكريم لا تتم إلا بالرجوع إلى كتب التفسير الموثقة، وخاصة التفسير بالمأثور

مثل تفسير الطبري وتفسير ابن كثير". (العمري، 1994، ص49). مع التنبّه إلى تمحيص الروايات ومعرفة الصحيح من غيره، ومعرفة الناسخ والمنسوخ.. وما يتعلّق بعلوم القرآن الكريم.

ب- كتب السنة النبوية: تأتي كتب الحديث النبوي بعد القرآن الكريم كمصدر للسيرة النبوية من حيث الصحة، فقد نالت كتب السنة الشريفة عناية فائقة من رجال الحديث الذين هيأهم الله تعالى لحفظ سنة النبي ﷺ حينما وضعوا القواعد والشروط التي تضبط رواية الأحاديث ونقلها عن رسول الله ﷺ، وتميّز صحيحها من ضعيفها. وذلك من خلال علمي مصطلح الحديث والجرح والتعديل.

تأتي في مقدمة كتب السنة من حيث الصحة الكتب الستة: (صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي والترمذي وبن ماجة) ويُضاف إليها موطأ الامام مالك ومسند الامام أحمد. "ومن نعم الله على عباده أن قيّض لهذه الكتب من يقوم بخدمتها - قديما وحديثا-.. إنّ معظم الأحاديث في السيرة وغيرها قد حكم عليه الأئمة وبيّنوا مرتبته.. وقد أُلّفت كتب خاصة تخدم كتب الحديث، وهي كتب التراجم والطبقات والمعاجم". (رزق الله أحمد، مرجع سابق، ص18). هذا وإن كان الهدف من تأليف كتب السنة حفظ تعاليم الشريعة وهدي الرسول ﷺ في العبادات إلّا أنها تضمّنت معلومات كثيرة عن السيرة النبوية تتكون من خلالها فكرة عامة عن سيرته ﷺ، لكن هذه المعلومات ينقصها الترتيب الزمني والتسلسل الموضوعي، فالمعلومات عن حادثة واحدة تكون مبثوثة في ثنايا كتب السنة بحسب ما يناسب كلّ جزء من تلك الحادثة لأبواب الكتاب. وهذه الثغرة جاءت كتب المغازي والسيَر لسدّها.

ج- كتب المغازي والسير: وقد كان الاهتمام بسيرة النبي ﷺ منذ عهد الصحابة ﷺ حيث يوجد منهم من وجّه اهتمامه إلى أخبار السيرة النبوية التي كان يُطلق عليها المغازي، ويتّضح ذلك من خلال دروسهم، فكان بن عباس ﷺ يُفرد يوما من أيام دروسه للمغازي،

فقد جاء في وصف سعة علمه أنه كان يجلس يوما لا يذكر فيه إلا الفقه ويوما لا يذكر فيه إلا التأويل، ويوما لا يذكر فيه إلا المغازي، ويوما للشعر، ويوما لأيام العرب. وكان البراء بن عازب ﷺ قد أملى شيئا كثيرا من مغازي رسول الله ﷺ، إلا أنّ تدوين المغازي والسير في كتب مستقلة لم يظهر إلا في عهد التابعين ومن بعدهم، "حيث كان الصحابة موجودين فلم ينكروا على كُتّاب السيرة مما يدلّ على إقرارهم لما كتبوه، والصحابة على علم دقيق وواسع بالسيرة لأنهم عاشوا أحداثها وشاركوا فيها..". (العمري، 1994، ص53).

د- كتب الشمائل: وهي التي تتحدّث عن أخلاق النبي ﷺ وصفاته، وإن كانت كتب السنة والسيرة قد تضمّنت كثيرا من المعلومات في ذلك، إلا أنها جاءت مبثوثة متفرّقة؛ لذا اهتمّ عدد كبير من علماء المسلمين بجمع شمائل الرسول عليه الصلاة والسلام وإفرادها بكتب خاصة غير كتب السيرة العامة حرصا منهم على إبراز أخلاق النبي ﷺ لأمته ليقتدوا بها، ومن هذه المصادر:

- كتاب الشمائل المحمدية لمحمد بن عيسى الترمذي (ت279ه)، ونال هذا الكتاب اهتمام العلماء بالشرح والاختصار والتعليق.
- كتاب أخلاق النبي ﷺ وآدابه لأبي الشيخ عبد الله بن محمد الأصبهاني (ت369ه)، وقد سار على طريقة الكتاب السابق، وضمّ كتابه أحاديث نادرة وفريدة عن حياة النبي ﷺ.
- كتاب الشمائل لأبي العباس جعفر بن محمد المستغفري.
- كتاب الأنوار في شمائل النبي المختار لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي. وهو من أفخم ما كُتب في الشمائل. وقد ذكر فيه مؤلفه سبعة وخمسين ومئتين وألفا من الأحاديث والآثار كلّها تتعلق بشمائل النبي ﷺ. وكتاب زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم.. الخ

فكتب الشمائل معدودة ضمن مصادر السيرة النبوية. وكذلك كتب الدلائل؛ "التي ألّفها أصحابها بقصد جمع المعجزات التي ظهرت على يدي النبي ﷺ مما يدلّ على نبوته". (حمادة، مرجع سابق، ص68)، أي اهتمت بدلائل صدق نبوّة النبي ﷺ وذكر معجزاته الدالة على نبوته الحسية والمعنوية، ومنها:

- دلائل النبوة لأبي بكر الفريابي.
- كتاب آيات النبي ﷺ لمحمد المدائني... وغيرها من الكتب. وهناك من جمع بين الشمائل والدلائل ككتاب: الوفاء بأحوال المصطفى لابن الجوزي، وكتاب الخصائص الكبرى للسيوطي.

4. منزلة النبي ﷺ في الكتابات الاستشراقية بين النبوّة والعبقرية:

إنّ تقديم صورة شاملة كاملة صحيحة لسيرة النبي ﷺ وصحابته الكرام واجب إسلامي في أعناق المسلمين عامة، والباحثين منهم خاصة، لا سيما في هذه الأزمان التي بدأ الناس فيها يتلهّفون إلى معرفة شخصية النبي ﷺ ومعرفة الدين الذي جاء به، وما زال الكثير من غير المسلمين يحملون صورة قاتمة سيئة عن نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام. لذا نجد أنّ "أعظم قصور يواجه الدراسات الاستشراقية هو عجزها عن التصوّر السليم للاسلام وروحه وأثره في المجتمع الإسلامي.. وهو قصور كبير يمنع إمكانية الاعتماد على هذه الدراسات...". (العمري، 1994، ص35-36).

وهذا لا يعني البتّة أن يكتم المسلم عاطفته ومحبّته لرسول الله ﷺ وصحبه الكرام ﷺ ودينه القويم؛ فإنّ هذا أمر لا بدّ منه، ويتوجّب على المسلم إظهارُ محبّته وإخلاصه، ولكن عملية تمحيص النصوص جهدٌ علمي ينبعث أساسا من العقل، والعاطفة تصدر عن القلب والمشاعر. فإذا كانت مبنية على العقل والعلم الثابت الصحيح، فإنها أي العاطفة، لا تزداد مع الأيام إلا توهّجا وإشراقًا، وهي غاية نبيلة ومقصد سامٍ. وأمّا إن كانت العاطفة مبنية

على أوهام وتخرّصات وتخيّلات أو على نصوص ضعيفة أو واهية أو موضوعة فإنها لن تصمُد، وستبذلُ مع الأيام، كلما كشف العلم ضعفها ووهنها.

لقد كان من أهداف الكتابات الاستشراقية في العصر الحديث جعلُ العربي المسلم حين يكتب عن تاريخ الإسلام عامة والسيرة النبوية خاصة ينسى نفسه أنّه مسلم، وأنّه يتلقّى التشريع والوحي ومنهج الحياة عن هذا النبي الكريم ﷺ، فتمكّن المستشرقون ومن والاهم إلى حدٍّ كبير في تزييف الحقائق عن الإسلام ونبيه ﷺ. وأصبحنا نرى ممن يحمل أسماءً إسلامية، وربما أظهر الصلاة والصيام يضع رسول الله ﷺ في كتاباته ومحاضراته على قدم المساواة مع من حارب الإسلام وتاريخه العظيم عبر العصور، كلّ ذلك باسم العلم. لأنه قد رُسّخ في ذهنه ومشاعره هذه الأفكار السامة القاتلة من المدرسة الغربية.

يقول محمد حسين في هذا الصدد: "ومن أكبر ما خُدع به الناس -والجامعيون منهم بوجه خاص- ما زعمه لهم بعض المستشرقين من أنّ الدراسات العربية والإسلامية لا تصحّ ولا تكون جديرة بالتقدير ومستقيمة على موازين العلم حتى يتجرّد كاتبها من عاطفته الدينية والوطنية فينسى أنه عربي حين يكتب تاريخ العرب، وينسى أنه مسلم حين يكتب تاريخ المسلمين. وليس فيما راج بين الناس من مفترياتٍ مغالطة أقبح ولا أخطر من هذا الزعم الباطل الذي يسلخ العرب من عروبتهم والمسلمين من إسلامهم باسم العلم". (محمد حسين، د ت، ص243).

ولا غرو في ما يقوم به هؤلاء، فلقد جنت هذه المدرسة الغربية الاستشراقية على جيلٍ كامل؛ فشوّهت صورة رسول الله ﷺ، وركّزت على شبهات واهية اعتمد عليها كثيرٌ من المستشرقين الحاقدين على النبي ﷺ وعلى دين الإسلام. التقطوها من غير تمحيص ولا بحث، من مدونات لم تلتزم الصحة، وكان كاتبوها يرمون بالعهدة في الرواية إلى غيرهم، فكتبوا من المرويات الموضوعة والمكذوبة والضعيفة؛ فتربّى على هؤلاء الكُتاب

المستشرقين الكثير ممن قيل إنهم من روّاد الجيل، الذين حملوا مشعل التنوير وأخذوا يعيثون في الأرض فسادا بما أتوا به من الأباطيل.

فقد صادم هؤلاء مصادمة تامة المناهج العلمية لعلماء المسلمين في تمحيص الروايات واستعمل الوسائل والأدوات العلمية المنضبطة في التحرير والتأليف واستخراج مكنون العلم وصحيحه، في حركة سليمة عميقة للعقل العربي المنضبط بقواعد الكتاب والسنة ومنهج الأولين في تلقي العلوم وتحمّلها وأدائها. جاء هؤلاء الروّاد -زعموا- بما جاءت به المدرسة الاستشراقية بما عاث في كتب سلفنا السابقين فسادا، فاستخرجوا الدخيل واعتمدوه على أنه الأصيل، بل حملوا على الأصيل فأرادوا تزييفه، كما أنهم يحملون على روايات البخاري ومسلم وعلى الروايات التي صحّت في غيرهما. وقبل ذلك كان "من مهام الحكومات أن تُسخّر عددا كبيرا من الباحثين ليكتبوا عن الإسلام والمسلمين باللغات الأوروبية.. [أي أنّ الخطاب] كان موجّها لأوروبا، أنه هذه هي صورة الإسلام فلا تتحولوا إليه، وإذا كانت هذه هي صورة المسلمين فلا تلومونا إذا اقتحمنا ديارهم، ولا تلومونا إذا استنزفنا خيراتهم..". (العمري، د ت، ص58).

وكأنموذج واحد مما ذكرنا، كتاب محمد حسين هيكل (حياة محمد) الذي فيه العجب العجاب، من رجل، الأصل أنه، إنما يُقرّر حياة سيد البشر محمد ﷺ الذي يدين له بالاتباع والرسالة، سواء مما جاء به من بنات أفكاره هو، أو مما نقله عن غيره كإنكار لكلّ ما أتى به النبي ﷺ من المعجزات الحسية.. إلى غير ذلك مما عاثوا به في سيرة نبينا محمد ﷺ. ولكن هيهات، فقد وقف لهم الجهابذة من العلماء فزيّفوا ما أتوا به، وأحقّوا الحقّ وأقرّوا الأصيل ونفوا الدخيل.

إنّ هذا المنهج في الكتابة الاستشراقية أثّر على من نحا نحوه، وتأثّر بهم من نظر بمنظارها من العرب؛ أمثال طه حسين في كتابه على هامش السيرة، فقد ذكر في أوّله أنّ لكل أمة بطلا وزعيما، وإن كان الكثير في سيرته من الخزعبلات والترّهات والمبالغات.

وهذا النوع من التفكير ملأ به القوميون العرب كُتُبَهم ومقالاتهم عن السيرة، فنجدهم يفخرون -وقد لا يؤمنون برسالته ونبوّته- بمحمد ﷺ بوصفه بطلا عربيا وزعيما عبقريا ومُغيّرا ومُجدّدا.. إلى غير ذلك من الأوصاف المجرّدة عن وصف الرسالة والنبوّة.

والنبي ﷺ نبيٌّ الله تعالى ورسوله وخاتم النبيين وسيد المرسلين.. لكن النبوّة شيء والعبقرية شيء آخر، فلا يُوصف ﷺ بالعبقرية كما صنع مؤلف العبقريات، ولا يوصف بالزعامة السياسية، ولا بالقيادة الحربية، كما صنع الذي ألّفوا في الزعامات والقيادات، أو يُعدّ ﷺ بطلا، كما صنع توماس كارليل (Thomas Carlyle) في كتابه (الأبطال)، أو يُقال عنه: إنه رسول الحرية، كما فعل عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه: (محمد رسول الحرية). (ينظر: الشرقاوي، 1990،.ص10)، إلى غير ذلك مما افتنّ به المؤلفون؛ لأنه ﷺ فوق ما يصفه به هؤلاء جميعا، إنّه النبي والرسول، وحسبه ذلك.

لقد كتب المستشرقون ضد السيرة النبوية وزيّفوا كثيرا من حقائقها، ولم يُنصفوا حتى في الكتابة. فيكتبون الكثير عن عمر بن الخطاب مثلا، ويُبرزونه في صورة ضخمة تكاد تحجب حقيقة الصورة المحمدية عند من لا يعرفون الإسلام، ليربطوا عظمة الإسلام بعظيم من أبنائه وليس بالإسلام ذاته. (ينظر: علي، 1994، ص92).

فمحمد صلوات ربي وسلامه عليه: نبيٌّ الله، ورسول الله ﷺ. أما العبقري فهو الأصيل الرأي، البعيد النظر، الذي لا يفوقه أحدٌ في حلّ المشكلات من غير تعمُّلٍ ولا تكلُّفٍ.. وقد وصف بهذا الوصف نبينا ﷺ عمرَ بن الخطاب ﷺ، (ينظر: أبو شهبة، مرجع سابق، ص18).

في الحديث أنّ النبي ﷺ قال: "أُرِيتُ في المَنامِ أنِّي أنْزِعُ بدَلْوِ بَكْرَةٍ علَى قَلِيبٍ، فَجاءَ أبو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا، أوْ ذَنُوبَيْنِ نَزْعًا ضَعِيفًا، واللَّهُ يَغْفِرُ له، ثُمَّ جاءَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فاسْتَحالَتْ غَرْبًا، فَلَمْ أرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ حتَّى رَوِيَ النَّاسُ، وضَرَبُوا بعَطَنٍ"، أخرجه البخاري رقم: (3682). فلم يُعلم أنّ أحدا سوى عمر ﷺ وصفه النبي ﷺ بالعبقرية، وهو

ما عبّر عنه النبي ﷺ في حديث آخر بالمُحدّث حين قال: "قدْ كان يكونُ في الأُمَمِ مُحَدَّثُون فإنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أحدٌ فعُمرُ بنُ الخطَّابِ" أخرجه مسلم رقم: (2398).

والمُحدّثون هم المُلهمون في إصابة الحق والصواب، وهم الأجدر في حلّ المُعضلات، وابتداع ما لم يُسبقوا إليه. قال الإمام الخطابي: يلقى الشيء في روعه، فكأنه قد حُدّث به، يظن فيصيب، ويخطر الشيء بباله فيكون. وجاء في كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخاري أنّ الإلهام هي الإصابة بغير نبوّة. (ينظر: أبو شهبة، مرجع سابق، ص18-19).

فإذا اعتقدنا أنّ محمدا نبيٌّ ورسول من عند الله تعالى فكل ما يأتون به من الصفات الحسنة إنما هو داخلٌ في ذلك. وهنا يجب التفريق بين العبقرية والنبوّة، بين عبقرية عمر ﷺ وبين نبوّة محمد ﷺ. "ومن العجيب حقا أن هذا المعنى الدقيق سبق إلى العلم به العباس عم النبي ﷺ على حين غَفَلَ عن إدراكه كبار الكُتَّاب، وحُذّاق المؤلفين المعاصرين الذين ضربوا في كل علم وفن بسهم". (أبو شهبة، مرجع سابق، ص20-21).

وليس أدلّ على هذا من قصة أبي سفيان بن حرب ﷺ أنّه لما أسلم ليلة الفتح ومرّت عليه كتائب الله وفيها كتيبة رسول الله ﷺ لم يملك أبو سفيان نفسه أن قال للعباس ﷺ: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما، فقال له العباس ﷺ : إنها النبوّة يا أبا سفيان، فقال: نعم -والله- إنها النبوّة. يقول محمد أبو شهبة هنا: لقد وقفت عند هذه الكلمة طويلا، وهي التي أوحت إليّ بما كتبت، وأكّدت في نفسي ما كنت علمت. (أبو شهبة، مرجع سابق، ص20-21).

فعندما قال أبو سفيان للعباس رضي الله عنهما: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما، يقصد النبي ﷺ وردّ عليه العباس بقوله: إنها النبوّة. حقيقة إنها النبوّة؛ فليست ملكا، والذين عدّوا النبوّة ملكا حاربوا النبي ﷺ على المُلك، وهو لا يُحارب على ملك كما هو معلوم ومعروف ومشهور. وإنما يُحارب على دين، على عقيدة، على توحيد، على نفي شرك..

ظنّوها دنيا، وحسبوها مُلكا، وحاربوا النبي ﷺ على الملك من وِجهة نظرهم، وكذلك حال كثير من الزائغين في هذا العصر يُحاربون دعاة الحق والصدق، يُحاربون من جعل الله تعالى لهم بين الناس قبولا؛ إنها الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ففرقٌ كبير بين النبوّة والعبقرية، وتجد في كتابات المعاصرين (عبقرية محمد) لـــ: عباس محمود العقاد حتى عدّها مقامًا لا يرقى إليه عثمان بن عفان ﷺ فكتب عن عبقريات عدّة: عبقرية محمد، عبقرية الصديق، عبقرية الفاروق.. وعبقرية محمد عبده، أمّا الخليفة الراشد الثالث فليس عبقريا بهذا المعنى عنده فكتب: ذو النورين عثمان ﷺ. وأيُّ شيء هذه بالنسبة إلى النبوّة. "فتكاد تكون صفحات (عبقرية عمر) ضعف صفحات (عبقرية محمد).. وهكذا عندما يكتب المستشرقون والذين انطبعوا بالثقافة الغربية عن الصديق أبي بكر، جعلوه المنقذ والمؤسس للدولة الإسلامية، ومنهم من يجعل عمر هو المؤسس لها، وكأنّ عمل محمد ﷺ لم يكن إلا ظلالا باهتة في الكيان الإسلامي ووجود الأمة الاسلامية". (علي، مرجع سابق، ص92).

فنجد عند الكُتّاب المعاصرين الكتابات عن النبي محمد ﷺ بمثل هذا: رسول الحرية، نبيّ السلام، عبقرية محمد... ومنهم من يوغل فيقول، كما قال أحمد شوقي (2012، ص44) -ويقصد النبي محمدا ﷺ-:

الاشتراكيون أنت إمامهم ** لولا دعاوى القوم والغلواء.

فقد تورّط في هذا -رحمه الله وغفر له- فإنه في الهمزية يُقرّر على حسب ما كان شائعا ذلك الوقت، عندما كتب مِدحته، وهي عظيمة جدا، ولو لم يكن لشوقي إلّا قوله: وُلد الهدى.. ﷺ. لكان من أشعر الناس.

وُلِدَ الهُدى فَالكائِناتُ ضِياءُ ** وَفَمُ الزَمانِ تَبَسُّمٌ وَثَناءُ

(شوقي، 2012، ص44).

لكنه وقع في أمور كهذا الذي مرّ ذكره؛ وهي قوله:

(الاشتراكيون أنت إمامهم ** لولا دعاوى القوم والغلواء)

أي لولا أنهم يُنافسون النبي محمدا ﷺ ويدّعون لغيره هذا السبق العظيم بإمامة الاشتراكيين لكُنت أنت إمامهم، وأنت إمامهم -كما يزعم شوقي- وهذا إن دلّ فإنما يدل على عدم علم أحمد شوقي بمعنى الاشتراكية وحقيقة الاشتراكيين آنذاك، إذ كانت الدعاية سائدة في ذلك الوقت على أنّ في هذا الخلاص للبشرية مما هي فيه، فخُدع بذلك من خُدع، ومنهم شوقي، فقال هذا البيت الذي ينعت فيه النبي محمدا ﷺ بالاشتراكية. وما ينبغي هذا الوصف لمحمد ﷺ أبدا. فهناك من يكتب عن النبي ﷺ وهناك من يصفه.. ولكن لن نجد وصفا لرسول الله ﷺ هو أعلى وأجلّ وأقوى تعبير من الوصف بالنبوّة ومن الوصف بالرسالة؛ فهو خاتم النبيين وسيد المرسلين. هو المثلُ الكامل والأسوة الشريفة والقدوة المنيفة. أمّا نعته بالعبقرية فهو الإجحاف بعينه في حق النبي ﷺ.

وفي هذا الصدد نذكر أنّ محبة النبي ﷺ محبّتان؛ محبة شخصية عاطفية، ومحبة شرعية رسالية، لا بدّ من الجمع بين المحبّتين. فمن أحبّ رسول الله عليه الصلاة والسلام محبة شخصية عاطفية أو قدّره واحترمه لما يرى فيه من الخصال العظيمة والصفات الجليلة وهو لا يؤمن برسالته ولا بنبوّته فلا تنفعه هاته المحبة وإن بلغت ما بلغت. وهذا الوصف ينطبق على حال كثير من الكُتّاب المستشرقين فيكتبون عنه كتابات عظيمة لكن لا تنفعهم أبدا ما لم يؤمنوا به بوصفه نبيا ورسولا ومُبلّغا عن ربه.

كثير ممن أحبّوا النبي ﷺ محبة قرابية شخصية عاطفية كأبي طالب مثلا، الذي دافع عنه دفاع المُستميت دونه، بل لم يقف الأمر عند مجرّد محبّته الشخصية، بل أعلن أنّ ما جاء به الحق، يعترف بأنّ دين محمد ﷺ حق، لكن المعرفة شيء، والايمان شيء آخر زائد عن المعرفة. عرف أبو طالب الحقّ لكنه لم يُوفّق لاتباع الحق الذي عرفه.

لقد أعلن في أبيات شعرية هذا المعنى قال فيها:

ودعوتني، وزعمت أنك ناصح ** ولقد صدقت، وكنت ثَم أمينا

وعرضت دينا قد علمت بأنه ** من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذاري سُبّة ** لوجدتني سمحا بذاك مبينا".

(التونجي، 1994، ص91)

أعلن أبو طالب بكلّ صراحة، بأنّ الذي حال بينه وبين الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ودينه هو خوف الملامة من قريش وسبّها له، فهو رجل له مكانته وله شعبيّته في قومه. هذا الموقف، هو السبب في عدم إيمان أبي طالب. وإذا نظرنا بعين القدر، علمنا علم يقين أنّ الله تعالى لم يكتب له ذلك الإيمان. لكن محبّته تلك وقرابته لم تنفعه، إلا نفعا لا يكاد يُذكر، وهو تخفيف العذاب عنه يوم القيامة؛ حيث أخرجه الله تعالى بشفاعة النبي ﷺ من قعر النار إلى ضحضاح من النار، يلبس نعلين يغلي منهما دماغه كما جاء بذلك الحديث الصحيح.

وعلى هذا الأساس فالناس في حاجة ملحّة إلى بعثة الأنبياء والرسل وقد بعث الله الأنبياء والمرسلين عليهم السلام لغايات عظيمة وأهداف سامية جليلة، من أهمها: تعريف البشر بخالقهم والحكمة من وجودهم، والإخبار بالغيبيات وأحداث الدار الآخرة، ومن أهداف إرسال الرسل تصحيح الانحرافات التي تطرأ على البشر، ومنها حاجة الناس إلى الشرائع لضبط حياتهم وتوفير سبل العيش الآمن السعيد.. لذلك لا ينبغي بحال من الأحوال أنْ يُنفى عن رسل الله وأنبيائه وعن محمد ﷺ صفة النبوة والرسالة؛ فبهما وعليهما تمام التشريع والبلاغ وإكمال الدين.

والأصل في كتابات السيرة قديما وحديثا غالبا تذكر وصف النبوّة فتقول: (السيرة النبوية) وليست سيرة محمد بن عبد الله مجردة. السيرة النبوية تعني سيرة النبي ﷺ، فأوّل وأكبر وصف في النظر إلى السيرة هي باعتباره ﷺ نبيا ورسولا خاتما من عند ربّه. لا باعتباره بطلا ولا فاتحا ولا عبقريا ولا اشتراكيا ولا مُغيّرا ولا زعيما.

إنّ الكتابات الاستشراقية ومن حذا حذوها من الكتابات العربية وغيرها يتعاملون مع النبي ﷺ ومع سيرته لا على أنّه نبيّ، وإنما على أساس أنّه رجلٌ غيّر في التاريخ وبطل أحدث له في العرب زعامة. يكتبون على أنه زعيم عربي عظيم، وبعضهم جعله الأوّل فيمن غيّر التاريخ.. ولكن ليس على أنه نبيٌّ ورسول من عند الله تعالى.

5. خاتمة:

إنّ الكتابات الاستشراقية في هذا الميدان وبهذا الوصف الذي ذُكر أدّت إلى نتيجة خطيرة، وهي أنّ أثر النبوّة غير ظاهر ووصف الرسالة مُغَيّب، وأنّ ما يُذكر فيها إنما هي من قبيل حكايات التاريخ وأساطير الأقدمين.. التي لا يُستفاد منها إلا المتعة والتشويق في القراءة؛ فيريدون بها تقوية المتعة في معرفة سيرة رجلٍ مرّت في التاريخ وانتهت. مجرّد ثقافة عن بطل غابر ومتعة بما فيها من القصص والأخبار.

إنّ هذه الكتابات الاستشراقية سواء من الغربيين أو ممن تبعهم في منهجية كتابتهم، تُحتّم على الباحث الرصين، المريد لأداء حقّ النبي ﷺ عليه. أن يفهم طبيعة الكتابات الاستشراقية قبل الولوج فيها؛ لأنّ نزع وصف النبوّة أو وصف الرسالة أو نزع الوصفين معا عن النبي ﷺ جناية كبيرة جدا، فهو عليه الصلاة والسلام قد ظهرت معجزاته ودلائل نبوّته قبل أن يولد؛ وهو بطن أمّه ﷺ إلى وفاته وقبض روحه.

إنّ القراءة في كتب السيرة النبوية والتعامل معها تحتاج إلى معرفة علوم كثيرة، فينبغي أن نتعامل معها بدقة وعلم ومنهجية لما تحويه من المباحث العقدية والدلائل الإعجازية والمواضيع الفقهية واللغوية والتاريخية.. فالتعاطي مع السيرة النبوية باحتراف ليس بالأمر السهل.

إنّ الكتابة في السيرة النبوية تحتاج إلى منهج يضبط ما يُستفاد من السيرة؛ وهو إرجاعها لأصولها التابعة لها في فقه الكتاب والسنة، ومن ذلك التمييز بين الكتابات التي

تبحث في رسالته ونبوّته ولماذا أرسل ﷺ للناس وبين الكتابات التي تظهر سيرته وشخصَه وحياته مجرّدا من وصف الرسالة والنبوّة.

إنّ الكتابة الاستشراقية في السيرة النبوية وشخص النبي ﷺ مشوبة بالسمّ والخداع، ظاهرها الثناء على نبي الإسلام والإشادة به وباطنها الطعن في الوحي والرسالة والنبوّة؛ فغلاف الاستشراق الظاهر لتخدير العقل العربي المسلم، والحشو الباطن فيه السمّ الزعاف، فليُعلَم هذا، وليُحذَر منه أشدّ الحذر.

6. قائمة المراجع:

الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، 1938، القاموس المحيط ج2، ط4، مطبعة المأمون، القاهرة.

فروخ، عمر، 1987، المستشرقون ما لهم وما عليهم، مجلة الاستشراق، العدد: 01، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق.

النعيم، عبد الله محمد الأمين، 1997، الاستشراق في السيرة النبوية، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

الثبيتي، أمل عواض، 1424هـ، السيرة النبوية في كتابات المستشرقين البريطانيين- دراسة نقدية مقارنة، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

الأعسم، عبد الأمير، 1987، الاستشراق من منظور فلسفي عربي معاصر، العدد: 01، دار الشؤون الثقافية العامة، مجلة الاستشراق، سلسلة كتب الثقافة المقارنة، العراق.

الظفيري، تركي بن خالد، 2015، الاستشراق عند إدوارد سعيد، رؤية إسلامية، ط2، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، السعودية.

سلامة، محمد يسرى، 2010، مصادر السيرة النبوية ومقدمة في تدوين السيرة، ط1، دار الندوة، القاهرة.

أبو شهبة، محمد، 1992، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ج1، ط2، دار القلم، دمشق.

البغدادي، الخطيب، 1983، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ج2، مكتبة المعارف، تح: محمود الطحان، الرياض.

الزهري، محمد بن سعد، 2001، كتاب الطبقات الكبير ج2، ط1، مكتبة الخانجي، تح: علي محمد عمر، القاهرة.

الندوي، سيد سليمان، 2002، الرسالة المحمدية، ط1، دار بن كثير، تر: محمد ناظم الندوي، تح: سيد عبد الماجد الغوري، بيروت –لبنان.

محمد الطاهر، عبد الباري، 2001، أبان بن عثمان ﷺ الأمير العالم، العددان: 75-76، مجلة دراسات تاريخية، القاهرة.

الطبري، محمد بن جرير، دت، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ج1، دط، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان.

حمادة، فاروق، 2002، مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ط3، دار القلم، دمشق.

الذهبي، شمس الدين، 1985، سير أعلام النبلاء (ج20)، ط1، مؤسسة الرسالة، تح: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقوسي، بيروت –لبنان.

هرماس، عبد الرزاق، 2007، مصادر السيرة النبوية بين المحدّثين والمؤرخين ط1، كلية الآداب جامعة ابن زهر –المغرب.

زريق، برهان، 2017، أهمية دراسة السيرة النبوية، ط1، وزارة الإعلام السورية، سوريا.

أحمد، مهدي رزق الله، 1992، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

العمري، أكرم ضياء، 1994، السيرة النبوية الصحيحة ج1، ط6، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

حسين، محمد محمد، دت، الإسلام والحضارة الغربية، دط، دار الفرقان.

العمري، أكرم ضياء، دت، موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، دط، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

الشرقاوي، عبد الرحمن، 1990، محمد رسول الله، ط1، دار الشروق.

علي، محمد عبد العظيم، 1994، السيرة النبوية وكيف حرّفها المستشرقون، ط1، دار الدعوة، تح: عبد المتعال محمد الجبري، الإسكندرية.

شوقي، أحمد، 2012، الشوقيات ج1، دط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

التونجي، محمد، 1994، ديوان أبي طالب عم النبي ﷺ، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت.